فلسفة التربية في عصر النهضة العربية (الطهطاوي أنموذجاً)

د. علي موسى الحسن*

الملخص

يتحدد عصر النهضة العربية مابين بداية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهناك من يربط النهضة بحملة نابليون بونابرت على مصر(1798م)، على أن الفكرة الأبرز هي التي تربط بين النهضة ومحمد علي باشا ومشروعه الإصلاحي، فقد شهدت مصر في عهد محمد علي باشا حركة إصلاحية واسعة، تمثلت في انفتاحها على الغرب، وفي ظهور التنظيمات العثمانية، مما أسهم في حدوث نهضة علمية وفكرية تجلّت في ميادين متعددة، في العلوم والسياسة والآداب والفنون وغيرها. فقد بدأ محمد علي باشا بإرسال الطلبة المصريين إلى أوروبا لدراسة العلوم النظرية والتطبيقية، في محاولة منه للاستفادة من علوم الغرب وتجربته في إعادة بناء الدولة في مصر وتحديثها على غرار دول أوروبا الحديثة، وكان رفاعة رافع الطهطاوي (1801–1873) من أبرز أعضاء البعثات العلمية التي قصدت باريس لتلقي العلوم،وبعد سنوات خمس، عاد الطهطاوي إلى مصر حاملاً معه كلّ ما تعلمه وخَبِرَه في بلاد الغرب، عاد مثقلاً بأسئلة كبرى تتعلق بمستقبل مصر، أسئلة من قبيل: كيف يمكن توظيف العلوم والخبرات التي تحصَّلَ عليها في باريس في سبيل نهضة مصر وتقدمها ؟ كيف السبيل إلى تحديث مصر؟ وتتمثل محاولتنا في هذا البحث في إظهار صيرورة فكر النهضة، وكيف تموضعت أفكار النهضة، ولاسيما في حقل التربية والتعليم، حيث توقفنا عند فلسفة التربية عند الطهطاوي، وهي الفلسفة التي سوف نقف على عدد من طروحاتها، لنظهر أهميتها وراهنية بعض من طروحاتها التي لازالت حاضرة إلى يومنا هذا.

* كلية التربية – فلسفة التربية – جامعة الحسكة.

The philosophy of education in the Renaissance of The Arab (Tahatawi Paradigm)

Dr. Ali M. Al-Hasan *

Summary

. There is consensus that history of the Arab Renaissancestarts from the 19th century , and end at the beginning of 19.

Mohammad Ali Pasha sending Egyptian students to Europe to study theoretical and practical science, which contributed to

The openness to the West.

Tahtawi (1873-1801)was one of the most important members of these missions ,after his returning from Paris , is pregnant with him all the new scince and ideas , he was thinking of the way in wich these sciences and ideas could be used in progress and the renaissance of Egypt?

The main ideas in the philosophy of education at Tahtawi ,are progressive ideas, particulary the issue of women's education, Tahtawi has written a special book in this context containing important issues in the philosophy of education.

We have discussed the importance of these ideas, in this search

* Faculty of Education – AlHasakah – Specializes in Education Philosophy – Al Hasakah Universty.

المقدمة:

هناك ما يشبه الإجماع على أن تاريخ النهضة العربية يبدأ من القرن التاسع عشر وينتهي عند بداية القرن العشرين، فإذا كان للأوروبيين نهضتهم، فإن العرب قد تمكنوا من النهوض وإنْ بعد قرون أربعة، وقد تزامن ذلك النهوض مع بداية تقهقر السلطنة العثمانية وتداعي أسسها الاقتصادية والثقافية، وبات من تحصيل الحاصل القول إن من الأسباب الرئيسة لتقهقر السلطنة العثمانية وأُفُولها هو عدم قدرتها على استيعاب التوسع الرأسمالي الأوروبي وامتصاصه آنذاك،على الرغم من تنبه عدد من سلاطين الإمبراطورية إلى ضرورة إصلاح حال البلاد .

وهكذا راحت البرجوازية الغربية تشغل مواقع متقدمة على خارطة اقتصاد السلطنة المريضة، مما أدى إلى نشوء برجوازيات صغيرة تابعة، وهذا انسحب بدوره إلى الولايات العربية المستعمرة آنذاك، الأمر الذي مهَّد التربة الخصبة لإمكانية ظهور طبقات وفئات اجتماعية وفكرية جديدة .

وعند محاولة وضع مؤشر القراءة على محددات أولية لفكر عصر النهضة العربية تظهر لنا أفكار رئيسة، لعل من أبرزها الفكرة التي تربط النهضة مع حملة نابليون بونابرت على مصر(1798)، على أن الفكرة الأبرز- برأينا – هي التي تربط بين النهضة ومحمد علي باشا ومشروعه الإصلاحي، ذلك أن محمد علي باشا أضحى رجل الدولة العصري في نظر جمهور غفير، ولاسيما الفئات المتعلمة والمثقفة، وقد تمكن محمد علي باشا من أن يتلمس طريق إصلاح الدولة آخذاً بالابتعاد شيئاً فشيئاً عن الباب العالي الذي بدأت أعراض الضعف تظهر عليه، وبمعنى أن محمد علي باشا أدرك أنه لا سبيل إلى إصلاح الدولة وفق النموذج العصري الذي وضعه نصب عينيه إلا بالاستقلال عن الباب العالي.

إن تحديث الدولة أصبح هاجساً عند محمد علي باشا،ولاسيما تحديث الجيش[1]، لذلك كان لزاماً عليه أن يبحث في عوامل التطور الاقتصادي والاجتماعي التي لا غنى

عنها لبناء الدولة، من هنا فإن التحديث عند محمد علي باشا يعني الأخذ بالنظم الأوروبية، ممايستلزم بالضرورة فك الارتباط مع الباب العالي ومحاولة التوسع خارج حدود السلطنة العثمانية، الأمر الذي لم تسمح به الدول الاستعمارية الغربية آنذاك، ذلك أن قيام دولة على أسس حديثة، من جيش منظم واقتصاد قوي وسلطة قادرة على القيادة وفق رؤية حديثة، يعني فيما يعنيه تهديداً لمصالح الغرب الاستعماري وأطماعه في المشرق العربي .

أولاً–عوامل النهضة الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر:

شهدتْ مصر في عهد محمد علي باشا حركة اصلاحية واسعة، تمثَّلت في انفتاحها على الغرب وفي ظهور التنظيمات الإدراية العثمانية، مما أسهم في إحداث نهضة فكرية تجلت في حقول متعددة، في الأدب والسياسة والعلم والفن، إلى غير ذلكمن صور الحياة الثقافية، ويمكن إجمال العوامل الرئيسة التي أسهمت بالنهضة وفق ما يلي:

1–الحملة الفرنسية على مصر(1798–1801):

دشَّنت الحملة الفرنسية على مصر بداية عهد جديد للبلاد العربية بما حملته من إصلاحات سياسية وإدارية وعلوم وآداب وفنون وصحافة الخ، و كان للفريق العلمي الذي استقدمه نابليون بونابرت إلى مصر أثر كبير في المستوى العلمي والثقافي بشكل عام، فقد تشكل هذا الفريق من اختصاصيين في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافية، وغيرها من التخصصات العلمية المتعددة، كما أسس نابليون مجمعاً علمياً على غرار المجمع العلمي الفرنسي، وكان من أغراض هذا المجمع البحث في موضوعات الطبيعة والصناعة والتاريخ، وسواها من الموضوعات المتعددة، وقد أذهلت التجارب التي أجراها العلماء الفرنسيون مؤرخ العصر آنذاك، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، الذي وصف العديد من هذه التجارب في كتابه ذائع الصيت (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)[2] حيث أظهر دهشته وإعجابه بها.

2- البعثات العلمية إلى أوروبا :

أرسل محمد علي باشا الطلبة المصريين إلى أوروبا، وكانت إيطاليا أُوْلى بلاد الإيفاد[3] التي باشر فيها الطلاب المصريين دراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وغيرها من العلوم العسكرية، أما أول بعثة أُرْسِلت إلى فرنسا، فكانت في حزيران(1826) لدراسة العلوم النظرية والتطبيقية وباختصاصات متعددة[4]؛ مما أسهم في الانفتاح على حضارة الغرب وترجمة العديد من المؤلفات العلمية والأدبية والفنية إلى اللغة العربية، وكان من رواد هذه الحراك الفكري والعلمي رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) الذي نقل إلى العربية تاريخ اليونان وأخبار الأمم القديمة، ونذكر أيضاً الشيخ علي مبارك (1816-1886) الذي أنشأ داراًللعلوم في مصر، وأسهم في إنشاء دار الكتب المصرية، بالإضافة إلى عدد من كبارالعلماء والروادالذين أسهموا في نقل وترجمة الكثير من علوم وأفكار الغرب[5].

كان محمد علي باشا ينظر إلى أوروبا الحديثة بوصفها أنموذجاً يُحتذى في مسألة بناء الدولة العصرية آنذاك، وكان يرى المجتمع الأوروبي مجتمعاً نشطاً يستثمر موارده البشرية والمادية ويدير شؤونه استناداً إلى العقل، من هنا أدرك ضرورة التنظيم العلمي للإنتاج، وراح يبني اقتصاد مصر وفق هذه الرؤية، فأصدر القوانين التي من شأنها تنظيم زراعة القطن بوصفه محصولاً استراتيجياً، كما باشر بإنشاء جهاز جديد لنقل المحاصيل الزراعيةوتسويقها، وعمل على إنشاء صناعات حديثة، ولعل محمد علي باشا عمل على ذلك بوحي من أفكار سان سيمون وأشياعه الذين سبق و أقاموا في مصر في ثلاثينات القرن التاسع عشر، ولربما هم من قدموا له العون في مسألة تخطيط أول عملية كبيرة وحديثة من عمليات الري في مصروتنفيذها، ونعني هنا إقامة السدود على النيل [6]

3-الإرساليات التبشيرية والجمعيات الأدبية:

شهدت العديد من البلدان العربية في القرن التاسع عشر حركة تبشيرية نشطة، ولاسيما منطقة بلاد الشام، وقد تجلى هذا النشاط التبشيري في بناء المدارس وتأسيس

الجمعيات العلمية والأدبية، وتعد مدرسة عينطورة التي أنشاها المبشرون العازاريون (1834) من أقدم المدارس في لبنان، وفي عام(1847) تم تأسيس الجمعية السورية في بيروت، وكان من روادها الأوائل ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، وفي عام (1852) أصدرت الجمعية مجلة علمية حملت اسمها، وعين بطرس البستاني رئيساً للتحرير فيها، كما ازدهرت حركة الترجمة وانشغل الرواد الأوائل باللغة والترجمة، فترجم بطرس البستاني التوراة إلى اللغة العربية، وألف معجم (محيط المحيط) ومعجم (قطر المحيط)، أما سليمان البستاني فترجم إلياذة هوميروس إلى العربية شعراً، إلى غير ذلك من أعمال في مجال الترجمة والتأليف قام بها آخرون، وبهذا نجد أن معظم الإرساليات التبشيرية المسيحية اضطلعت بدور مهم في النهضة الفكرية العربية، وكان لها دور بارز في اليقظة القومية العربية، ولم يقتصر هذا النشاط على الإرساليات فحسب، فقد شهدت البلاد نشاطاً مماثلاً في الأوساط المسلمة، فنذكر على سبيل المثال أنه في عام (1873) تأسست (جمعية زهرة الآداب)، وفي عام (1880) تم تأسيس (جمعية المقاصد الخيرية) في بيروت، وفي عام (1878) أمر مدحت باشا بتأسيس (الجمعية الخيرية) في دمشق، إلى غير ذلك من جمعيات ومعاهد تُعنى بالعلوم والتاريخ والصنائع والفنون،و أما في مصر فقد كان للمدراس والبعثات العلمية دوراً كبيراً في إثراء الحياة الفكرية والسياسية في البلاد، ونجد أن محمد علي باشا استعان بمدرسين طليان لتدريس العلوم، ذلك أن اللغة الإيطالية كانت اللغة الأوروبية السائدة في التدريس آنذاك، لكن محمد علي باشا ما لبث أن استبدلها باللغة الفرنسية التي حملت أفكار فولتير وروسو ومنتسكيو وآخرين من أعلام الفكر التنويري، وابتداءً من عام (1826) انتظمت البعثات العلمية إلى فرنسا، وكان أعضاء هذه البعثات يقرأون المؤلفات والمطبوعات الفرنسية، ويعيشون ويخبرون الحياة الفرنسية بكل تناقضاتها وأحداثها، وقد أسهم أعضاء البعثات العلمية بعد عودتهم إلى البلاد بدور كبير في تنمية الحياة الفكرية والسياسية، وكان من أبرز أعضاء تلك البعثات رفاعة رافع الطهطاوي[7].

4-الطباعة :

كان للطباعة دوراً مهماً في نشر الفكر والثقافة في البلدان العربية، وقد تم إنشاء أول مطبعة في لبنان في بلدة دير قزحيا عام (1601)، ويذكر أنه بعد ذلك التاريخ بمدة طويلة تزيد عن قرن من الزمان تم إنشاء مطبعة أخرى في دير حنا بالشوير، وفي عام(1857) أسّس خليل خوري المطبعة السورية، وأما في الديار المصرية، فقد دخلت أول مطبعة عربية إلى البلاد مع الحملة الفرنسية على مصر، وعرفت آنذاك بالمطبعة الأهلية، وبعد جلاء الفرنسيين ظلت مصر دون مطبعة مدة عشرين عاماً إلى أن أسس محمد علي باشا المطبعة الأهلية في بولاق عام (1821)، كما أنشأت الكنيسة القبطية مطبعة عرفت بالمطبعة الأهلية أيضاً في عام (1860)، وكان لهذه المطابع دوراً كبيراً في نشر الكتب والمؤلفات القديمة، وإحياء التراث العربي، ونشر المؤلفات الحديثة المترجمة عن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية[8].

5-الصحافة والترجمة :

كانت البدايات الأولى للصحافة في مصر في عهد الاحتلال الفرنسي، وفي أثناء تولي محمد علي باشا الحكم في البلاد صدرت جريدة (الوقائع المصرية) عام (1828م) باللغة التركية، وبعد مدة توالى صدورها باللغتين التركية والعربية، إلى أن صارت تصدر باللغة العربية بعد مدة وجيزة، وكان كلٌّ من رفاعة رافع الطهطاوي والشيخ حسن العطار، والشيخ محمد عبده، وأحمد فارس الشدياق من أوائل المحررين فيها، وتعدُّ جريدة (مرآة الأحوال) لصاحبها رزق الله حسون أول جريدة عربية تصدر عن دار الخلافة العثمانية (إستنبول) في عام (1855م)، وفي بيروت أصدر خليل خوري جريدة (حديقة الأخبار) عام (1858م)، وفي بيت الدين في لبنان صدرت جريدة (لبنان)عام (1867م)، وفي العام نفسه صدرت جريدة (الفرات) في حلب [9] وكتب أديب إسحق في العدد الأول من جريدة (مصر) التي كانت تصدر في القاهرة عام (1879م) قائلاً:« مسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً التعريض والتلميح، وأن أجلوَ مبادئ

الحرية وآراء ذوي النقد، وأن أبين ما يُظْهِرُهُ البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد، وأن أوضِّح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحاً (أولي الأمر)، ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهماً (أمناء الأمة)، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً «ولاة النظام»[10].

لقد عملت الصحافة على إيقاظ الأذهان ولفْتِ الأنظار إلى حال البلاد المتردي، وأسهمت في تنمية الوعي القومي لدى جماهير واسعة من أهل البلاد، وأما حركة الترجمة فبدأت في بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر، وقد غلب عليها الطابع الفردي، فلم تكن منظمة، وأما في الديار المصرية فكان للترجمة دوراً متميزاً، ذلك أنها حظيت باهتمام كبير من قبل محمد علي باشا الذي كان ينظر إلى الترجمة بوصفها وسيلة مهمة من وسائل تحديث الدولة الناشئة آنذاك، وقد عرض رفاعة رافع الطهطاوي على محمد علي باشا أن يؤسس مدرسة للألسن، وبالفعل تم إنشاء المدرسة عام (م1835)، وعُرِفَتْ بمدرسة المترجمين، ثم تغير اسمها بعد ذلك إلى مدرسة الألسن، وأُسند إلى رفاعة رافع الطهطاوي مهمة الإشراف عليها، وكان الغرض منها هو تخريج مترجمين، وقد بذل الطهطاوي جهوداً كثيرة في ترجمة العديد من الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية[11]، وترجم أيضاً عدداً من الكتب العلمية والأدبية المهمة من اللغات التركية والفرنسية والإيطالية والفارسية إلى اللغة العربية، كذلك أسهمت الصحافة في حركة الترجمة التي شهدتها البلاد، فعلى سبيل المثال كانت جريدتا (المقتطف) و (الهلال) تنشران المقالات المترجمة، مما مكّن جمهوراً عريضاً من الاطلاع على ثقافة الآخر وعلومه وتجاربه في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها.[12]

ثانياً- في سيرة الطهطاوي:

1-حياته في مصر قبل البعثة إلى فرنسا:

وُلِدَ رفاعة رافع بن بدوي بن محمد بن علي عام (1801م) [13] في مدينة طهطا التي تقع في الصعيد الجنوبي لمصر، ويصادف العام الذي ولد فيه الطهطاوي العام نفسه

الذي أُجليتْ فيه الحملة الفرنسية عن مصر، وينتسب الطهطاوي إلى أسرة من الأشراف الذين توارثوا العلم الديني، وقد رحل رفاعة مع العائلة إلى مدينة (جرجا) *بسبب ضيق العيش، وهناك تمكن من حفظ القرآن الكريم، وبعد وفاة والده، عادت العائلة إلى (طهطا)، وتكفَّل به أخواله الذين كانوا من علماء الأزهر، وعملوا على إعداده للالتحاق بالأزهر، وبعد سنوات قليلة رحل رفاعة إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر، وكان ذلك في عام (1817م) حيث أمضى أعواماً خمسة في الدراسة، تتلمذ خلالها على عدد من علماء الأزهر، كان من أبرزهم الشيخ حسن العطار الذي ترك أثراً كبيراً في تكوين فِكْرِ رفاعة الطهطاوي، والجدير بالذكر أن الشيخ حسن العطار كان هو الذي رشح رفاعة الطهطاوي ليكون إماماً للبعثة الطلابية إلى فرنسا[14].

2-الطهطاوي في باريس (1826-1831) :

عندما أُوْفِد الطهطاوي إلى فرنسا كانت المهمة الرسمية التي أُسندت إليه هي أن يكون إماماً ومُرشِداً لطلاب البعثة العلمية، لكنَّ الطهطاوي الشغوف بالعلم وحب المعرفة، وجد الفرصة سانحة لتعلم اللغة الفرنسية، وقد تحقق له ذلك خلال مدة وجيزة، مما مكنه من التعرف إلى العلوم الحديثة والثقافة الفرنسية بشكل عام، فراح يتفكر فيها مقارناً بين حال العلم والثقافة في البلاد الجديدة وحال العلم والثقافة في بلاده، وباشر القراءة في ميادين العلوم والفكر المتعددة، قرأ في علم التاريخ والجغرافية والهندسة والطبيعة والسياسة والقانون، ومما يُذكر عنه أنه قرأ بإمعان كتاب(روح القوانين) لمونتسكيو*، وكتاب (العقد الاجتماعي) لروسو**، واطلع على شعر راسين وفكر فولتير، إلى غير ذلك من أفكار ومؤلفات مهمة[15].

3-عودة الطهطاوي إلى مصر:

عاد الطهطاوي برفقة البعثة الطلابية إلى مصر بعد أعوام خمسة أمضاها في بلاد الاغتراب، وبرأسه أسئلة كثيرة، منها السؤال الذي ظل يلحّ عليه، وهو كيف يمكن الاستفادة من العلوم والخبرات التي تحصَّل عليها و رآها في فرنسا لخدمة مصر؟

عمل الطهطاوي ما بوسعه بعد عودته من فرنسا، متسلِّحاً بكل العلوم والخبرات الحديثة التي نهلها من فرنسا، مدرِكاً في الوقت نفسه أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، حيث عاصر الطهطاوي أربعة من حكام مصر، محمد علي باشا، وعباس الأول، وسعيد باشا، والخديوي إسماعيل، وبهذا تحدد إسهامه الفكري والثقافي، ففي عهد محمد علي باشا (1805– 1848) عمل الطهطاوي في ميدان الترجمة بمدرسة الطب، حيث كان الأساتذة من الأجانب في مدرسة الطب لا يجيدون اللغة العربية، وكذلك كان الطلاب لا يجيدون اللغات الأجنبية، ومن ثَمَّ عمل في ميدان التدريس في مدرسة التجهيز الملحقة بمدرسة الطب، وكان الطهطاوي يدرِّس مبادئ الحساب والهندسة والتاريخ الطبيعي والمنطق، وهي مجموع المواد التي كانت مقررة على الطلاب ليتمكنوا من الالتحاق بمدرسة الطب، بعد ذلك انتقل الطهطاوي إلى المدرسة الحربية حيث أُسْنِدَتْ إليه مهمة ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية[16]، إلى أن تم إنشاء مدرسة الألسن عام (1835) وتولى الطهطاوي إدارتها بأمر من محمد علي باشا، ويمكن القول إن الطهطاوي كان يتمتع بهامش كبير من الحرية والرعاية في عهد محمد علي باشا، وقد تجلى ذلك في غزارة إنتاجه العلمي والفكري، وكان الطهطاوي ينظر إلى محمد علي باشا باحترام وإعجاب، فهو الرجل الذي حرَّر مصر من قبضة المماليك، وهو الرجل الذي قاد البلاد في طريق التقدم والعمران، وبلغ إعجاب الطهطاوي بشخصية محمد علي باشا إلى حدِّأن نعتهبلقب المقدوني الثاني[17].

وأما في عهد عباس الأول (1849–1854) فقد آلت الأحوال إلى غير ما يحب الطهطاوي،فقد أمر الحاكم الجديد(عباس الأول) بإغلاق معظم المدارس الحديثة، ومن بينها مدرسة الألسن، وذلك لأنه لم يكن راض عن سياسة جده محمد علي باشا ولا عن سياسة عمه إبراهيم باشا، وبعد إغلاق معظم المدارس في مصر، أصدر عباس الأول أمْرًابسفر الطهطاوي إلى السودان بذريعة إنشاء مدرسة ابتدائية هناك، و قد فهم الطهطاوي هذا الأمر على أنه نفياً له من البلاد، فتلقى الأمر بصبر وجلَدٍ[18] .

إن موقف الطهطاوي من عباس الأول لم يكن موقف من يحمل الودّ لهذا الأخير، وربما ليس مجرد إعجاب الطهطاوي بلغة (فنلون)** وطرافة قصته، هو ما حمله على ترجمة (تلماك) عندما كان منفياً في السودان، فالكتاب الذي وضعه (فنلون) ينطوي على نقد لطغيان لويس الرابع عشر، كما يتضمن دروساً في الأخلاق تطال الأوتوقراطيين يمكن سحبها بسهولة على عباس الأول[19]، وبقي الطهطاوي في منفاه إلى أن تولى سعيد باشا الحكم في مصر عام (1836) وذلك بعد وفاة عباس الأول، وبعد عودته إلى مصر تم تعيينه مديراً للمدرسة الحربية، وراح يعمل على تطويرها، فحدّث المناهج والمقررات العلمية، إضافة إلى تحديث العلوم العسكرية التي كانت تُدَرَّسُ في المدرسة الحربية آنذاك، كما عمل الطهطاوي في حقل التراث الإسلامي، وذلك بعد أن تمكن من الحصول على موافقة سعيد باشا على طباعة العديد من كتب التراث، لكن ذروة نشاط الطهطاوي كانت في عهد الخديوي إسماعيل(1863-1879)، حيث كتب أهم المؤلفات وأنجز العديد من الترجمات[20].

4- مؤلفات وترجمات الطهطاوي وأهميتها الفكرية :

كان لفكر التنوير الفرنسي دور مهم في إعادة بناء رؤية الطهطاوي وثقافتهإلى ثقافة الآخر، وعلى الرغم من أن محمد علي باشا عندما أَوفد الطهطاوي لمرافقة البعثة العلمية إلى فرنسا، لم يكن يرغب أن يطلع الطهطاوي وأعضاء البعثة العلمية أكثر مما ينبغي على تفاصيل الحياة وروح الثقافة في فرنسا [21]، فإن الطهطاوي الشغوف بالعلم والمعرفة وحب الاطلاع – كما تبيَّنسابقاً – تمكن من معايشة والْتقاط دقائق الحياة الفرنسية، والقارئ لكتابه ذائع الصيت (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي وسمه بعنوان آخر أقل شهرة، هو (الديوان النفيس بإيوان باريس)، يجد وصفاً دقيقاً في الكلام على أهل باريس وعاداتهم وميولهم وطباعهم، حيث ذهب الطهطاوي إلى أن الباريسيين ‹ يمتازون بذكاء العقل ودقة الفهم، .. ويحبون معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى أن عامَّتهم يعرفون القراءة والكتابة›[22] وأن من طِباع الفرنسيين حب التغيير، وخصوصاً في

الملبس والزي، ومن طباعهم المهارة والخفة، ومن خصالهم محبة الغرباء، غير أنهم أقرب إلى البخل من الكرم، ومن طباعهم الغالبة الصدق والمروءة، والوفاء بالوعد وعدم الغدر، ومن خصائصهم صرف الأموال في اللهو والشهوات، والرجال عندهم عبيد النساء[23]، إلى غير ذلك من الطباع التي عاينها وخبرها الطهطاوي عند الفرنسيين، وفي كتابه (مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية) تناول الطهطاوي أحوال المجتمع المصري، ولاسيما الوضع الاقتصادي، وينطوي هذا الكتاب على محاولة للإجابة عن السؤال الكبير الذي ظل يلح على الطهطاوي ويؤرقه، وهو ما السبيل إلى نهضة مصر وتقدمها؟

لقد أظهر الطهطاوي طروحات متميزة في موضوعات الدولة ونهضة المجتمع، تتخطى الطروحات التقليدية، ولكن دون أن يقطع مع الطروحات الإسلامية في موضوعات الدولة والمجتمع .

لقد توقف الطهطاوي مطولاً عند ثورة(1830)*** شارحاً ومبيناً الأسباب العميقة التي دفعت باتجاه قيام الثورة، وما آلت إليه أحوال الفرنسيين، وما يستوقفنا هو قول الطهطاوي في هذا السياق: ‹‹ الفتنة حصلت في باريس والملك لم يكن بها، ثم إن أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه، وأن يسترد أوامره ويسترجعها...فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل، فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله المصالحة، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه، فأجابوه بأنه لم يبق محلاً للصلح، وأن أوان الصلح قد فات، وأنه لم يتبصر في العواقب، ومن لم يتبصر في العواقب لقى النوائب، وأنه لم يدقق النظر، وإلا لما حصل ذلك ››[24]

نلحظ أن الطهطاوي استخدم مصطلح الفتنة ولم يستخدم مصطلح الثورة، وهذا مما يعني أن الطهطاوي لم يقطع مع الطروحات الإسلامية في موضوع الدولة والمجتمع، فالطهطاوي ظل أسير الفكر الأزهري، ولم يستطع الإفلات من هيمنته، وذلك على الرغم من محاولته توظيفالفكر المدني الذي تلقاه في فرنسا، فقد ظل متمسكاً بمفهومات

الموروث الأزهري في مفهوم الدولة والحكم، وكان يرى في إمكانية إصلاح الحاكم السبيل إلى الخروج من الأزمة، وغنيٌّ عن البيان أن مفهومات من قبيل: النصح والإرشاد،الإصلاح وعدم الخروج على الحاكم، هي مفهومات أزهرية بامتياز .

كتب الطهطاوي أيضاً في تاريخ مصر مجلدين، لكنَّه لم يستكمل هذا المشروع، وفي التربية وضع كتاباً بعنوان (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين)، وهو الكتاب الذي انطوى على طروحاته في فلسفة التربية، وهو الكتاب الذي سنتوقف عنده بالقراءة للوقوف على أفكاره الرئيسة في التربية، وأما عن إسهامه في ميدان الترجمة، فإنه لا يقل أهمية عن مؤلفاته التي تحدثنا عنها فيما تقدم، ذلك أن تولّيه إدارة دار الألسن حتّم عليه القيام بترجمة العديد من المؤلفات،فترجم في ميادين متعددة، منها: التاريخ والقانون والأدب، وغيرها كثير، كما أشرف على ترجمة تواريخ العالم القديم، والقرون الوسطى، وسير ملوك فرنسا، ومنها سيرة الإمبراطور شارل الخامس، وأشرف أيضاً على ترجمة كتاب عن فلاسفة الإغريق، وكتاب(تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم) لمونتسكيو، وهذا مما يشير إلى اهتمام سيده محمد علي باشا بترجمة سير العظماء من القادة والحكام[25].

5- فلسفة التربية عند الطهطاوي :

في الحديث عن الفكر التربوي وفلسفة التربية عن الطهطاوي، فإننا سوف نتوقف عند كتابه العمدة (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين)، الذي انطوى على أفكار الطهطاوي الرئيسة في موضوعات التربية، ولعل الطهطاوي عندما اختار هذا العنوان اللافت لكتابه، كان يشير إلى نفسه بوصفه مرشداً ومربياً، وهو الذي أسند إليه محمد علي باشا مهمة الإرشاد الديني للبعثة الطلابية إلى فرنسا – كما رأينا فيما سبق – لقد أظهر الطهطاوي في كتابه هذا معالم الطريق الجديد للتربية في مصر، ولعله أراد أن يقدم إجابة عن السؤال الرئيس معلقاً، وبمعنى السؤال الذي ظل دونما جواب، السؤال

الذي مازال حاضراً إلى يومنا هذا، والسؤال هو كيف السبيل إلى بناء المواطن الصالح وتربيته؟

والمواطنة تعني فيما تعنيه عند الطهطاوي، المساواة والعدالة في الحقوق والواجبات، المساواة بين الأفراد بصرف النظر عن موضوع الجندر (الجنس)، أي بصرف النظر عن موضوع الذكورة والأنوثة، مما يعني بالضرورة تربية المواطن على قيم المواطنة الحقَّة، وفي تعريف التربية ذهب الطهطاوي إلى أن التربية هي فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية، وبمعنى هي تربية النوع البشري، ذكراً كان أم أنثى، والتربية عند الطهطاوي هي فن تشكيل العقول وتكيفها بكيفية حسنة،وغايتها إيجاد ملكة راسخة في الطفل تحمله على التخلق بحسن الأخلاق حسب الإمكان[26]، وكمال التربية عند الطهطاوي هي حمْلُ المكلف على رعاية الحق للحق والخلق، وبذلك ينال الطفل خير الدارين، أي خير الدنيا، وخير الآخرة.

وفي موضوع العلاقة بين التربية والذكاء، فإن الطهطاوي قد نهج نهجاً تجريبياً، ذلك أن الذكاء غريزة طبيعية، ولكن بالتربية تنمو العقول وتتحسن الإدراكات، فعندما نقوم بتربية مجموعة من الأطفال متفاوتي الذكاء، فإننا نقوم بتربيتهم بوصفهم مجموعة واحدة،وليس بوسع المربي أن يصل بهذه المجموعة إلى درجة متساوية بالذكاء، ذلك أن الذكاء غريزي لا يزيد بالتربية، وعلى الرغم من ذلك فإن الطهطاوي يعوّل كثيراً على التربية، فالتربية الحسنة عنده خير من الذكاء المتوسط، والذكاء الكامل – بحسب تعبير الطهطاوي – إذ ما صحبته التربية الفاضلة، فإنَّ النتاج يكون عظيماً، والتربية بالمحصلة تعني تنمية الجسد والروح والأخلاق بحسب قابلية الطفل واستعداده، والهدف من التربية الأولية عند الطهطاوي، هو ترويض الطفل، بمعنى أن يعتاد الطفل على الطاعة، طاعة المربي والمرشد، وهذا مما يشترك فيه الإنسان والحيوان، ولكن تنمية العقل التي هي خاصية الإنسان، هي كمال التربية عند الطهطاوي، ولذلك يقال لمن اكتسب المعارف الجيدة والأخلاق الحسنة إنه حسن التربية[27].

إن التربية الحسنة تفضي بالضرورة إلى تربية الهيئة المجتمعية، أي تربية الأمَّة – برأي الطهطاوي – فالأمة التي أحسنت تربية أبنائها هي أمَّةٌ سعيدة، ومِلَّةٌ حميدة، فبالتربية الحسنة للأطفال لا تخشى الأمة أن تأتمن أبنائها على أسرار الوطن، وذلك بخلاف الحال عندما تكون التربية سيئة، ومن سوء التربية أن تَكِلَ الأمُّ تربية أولادها إلى غيرها، وبمعنى أن تتكفل المرضعات والمربيات بتربية الأطفال عوضاً عن الأم، ذلك أن الطهطاوي ينظر إلى الأم بوصفها المربية التي ليس بوسع أحد أن ينوب عنها في أداء دورها التربوي الحق،فالأم بما أُوْدِعَ فيها من الحب والرأفة على أولادها هي الجديرة بالتربية، فإذا ما قامت المرأة بتربية أولادها في المرحلة العمرية الأولى، تربية حسية ومعنوية، انتعش في أذهان الأبناء اعتدال المزاج، وسمو الأخلاق، وصاروا أقرب إلى الرفق واللين، وهذه من سمات التمدِّن عند الطهطاوي [28]، ولكن التربية تكون بحسب مقتضى الحال، حال البلاد، ذلك أن التربية هي إعداد الأفراد للقيام بأدوارهم المناسبة للنهوض بالبلاد، ولمّا كانت أحوال البلاد متباينة، فإن التربية تكون على صنوف، وعلى سبيل المثال: إذا كانت طبيعة البلاد عسكرية مائلة إلى الحروب والنزاعات، فإن تربية الأولاد الذكور تكون تربية خشنة قائمة على الأنَفَة والشجاعة، وأما تربية البنات فهي تربية مائلة إلى محبة الشجعان والأبطال وفحول الرجال، وذلك لينتفع بهن الوطن، فتربية الأطفال ذكوراً وإناثاً من أوجب الواجبات، كيف لا والتربية مطلوبة حتى في غير الأدمي ؟!. ويورد الطهطاوي في كتابه (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين) طائفة من الأقوال والأمثال في تربية اليونان، فقد ذهب بعض اليونان إلى أن السبب الأعظم في كثرة فحول الرجال، والأبطال الكبار في جاهليتهم، أي جاهلية اليونان، إنما يعود إلى حسن تربية الأطفال، فكان من عادات أهل اليونان أن يربوا صغارهم على العيش بأماكن نائية، وكانوا يدربونهم على الشجاعة واكتساب القوة، وكانت المرضعات لا يضعن للأطفال قماطاً، ومن عادات أهل اليونان أن يعلموا أطفالهم عدم الخوف من ظلام الليل، وعلى عدم البكاء والتشكي إلا لحاجة لازمة، وبعد بلوغ الطفل سن السابعة

كانوا يطلبون إلى المعلم أن يعلمَه الأشغال وتحمّل المشاق، والمبادرة في الطاعة، وكان المعلمون لا يميزون بين الأطفال في التعليم، بل يعلمون الكلَّ بطريقة واحدة، فالأطفال متساوون في القيام بالواجبات، لكن المعلمين كانوا يضعون كل من ظهرت نجابته من الأطفال في التعليم رئيساً على من عداه، وذلك كله بإشراف المعلم .[29]

كان أهل أثينا(مدينة الحكمة) يعتنون بتعليم الأطفال وتربيتهم، وذلك لعلمهم أن بقاء عزِّ المملكة إنما يكون بالتربية الحسنة، وذهب الطهطاوي إلى أن أهل اليونان كانوا يحثُّون الأبناء على تعلم الحرف والصنائع، وكان من عاداتهم أن كل من يثبت عليه من أهل المدينة، أنه لم يتعلم حرفة أو صنعة، فإنه يفضح على رؤوس الأشهاد، وكان من أحكام هذه المدينة، أن المرأة عندما تتجهز للزواج، فيجب أن لا تتجهز بأكثر من أثواب ثلاث، وأمتعة قليلة الثمن، وذلك خوفاً على أهلها من الفقر[20]، وهذه أخلاق المدينة– كما عرضها الطهطاوي– ويذكر أيضاً أن من اجتمع بغير زوجة وعاشرها، أو خالط النساء المتبرجات، فلا يصح أن يكون من أصحاب المشورة، لأنه لا يؤتمن على مصلحة الأهالي، وهكذا كان حال التربية في عموم بلاد اليونان، فهي تربية فاضلة وحميدة، ولا يفوت الطهطاوي أن يذكر في هذا السياق، تربية أرسطو للإسكندر الأكبر الذي ذاع صيته في البلاد، وصار مضرِب المثل في التربية والحكمة والقوة، وفي الحديث عن أوربة الحديثة التي خبرها الطهطاوي، يذكر أن من عادات الفرنسيين قديماً،أن يربوا بناتهم في أديار الراهبات، إلى أن يبلغن سن الزواج، ولكن الطهطاوي على الرغم من إعجابه الشديد الذي أظهره لجهة موضوع التربية في عدد من البلدان الأوروبية، فإنه بالمقارنة مع موضوع التربية عند العرب، ذهب إلى أن ذلك لا يشكل قطرة من بحر بالنسبة لتمرين الأطفال عند العرب على اقتحام الخطوب، ودور الأمهات في دفع الأبناء إلى ميادين القتال، والمثال الأبرز على ذلك في تاريخ التربية والثقافة عن العرب، هو الخنساء التي دفعت بأبنائها الأربعة إلى ميدان الحرب، حيث قضَوا دفاعاً عن الكرامة، وتوقف الطهطاوي عند قول الخنساء الذي صار مضرِب المثل في

التضحية والذود عن حياض البلاد :" الحمد لله الذي شرفني تقبلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[31].

لعل الطهطاوي في سرديته التاريخية هذه، أراد أن يُظْهِرَ دور التربية بوصفها إعداداً وتعبئة للنشء لبناء الأوطان والدفاع عنها، وعنده أن تربية الأطفال يجب أن تكون تربية منزلية برعاية الأم والأب، فهذه هي التربية الحقة، وكل امرأة لم تَلْقَ التربية من لدن أمها منذ الصغر، فإنها لن ترغب بتربية أولادها في المستقبل عندما تصبح أماً، وبغير عناء كبير يجد القارئ لفلسفة التربية عند الطهطاوي حِرْصَ الأخير على جذر العائلة النووية، أي حِرْصَ الطهطاوي على النواة الأولى للعائلة، (الأم والأب) ذلك أن موضوع التربية هو شأن العائلة بالمقام الأول، وهذا ما كان يعيبه على العائلة في البلدان الأوروبية، فتربية الأمهات لأولادهن – بحسب قوله- قليلة في تلك البلدان، وأمْرُ التربية غالباً ما يكون مُوكَلاً للمرضعات[32]، وأحسب أننا في مناطق متعددة من البلاد العربية بدأنا نحذو حذو البلدان الأوربية في تربية الأبناء، وذلك لجهة استخدام المربيات في البيوت، ومردُّ ذلك ربما يتوقف على إمكانيات الأهل المادية وانتمائهم الطبقي في كثير من الأحيان.

6-في التعلم وأقسامه :

ذهب الطهطاوي إلى أن التعلم هو الوسيلة المثلى التي يكتسب بها الإنسان معرفة ما يجهله بالكلية، أو هو الوسيلة لإكمال علمه ببعض أشياء جزئية، والتعلم عند الطهطاوي جزء من التربية المعنوية، التي تعني فيما تعنيه تهذيب العقل وترويض الذهن، والتربية المعنوية تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

أ- **القسم الأول:** وهي المرحلة الأولى في التعليم عند الطهطاوي، وتكون في أيام الصبا والشباب، وهي المرحلة التي يخشى أن تمضي دون تعلم، ذلك أنها مرحلة حساسة في حياة البشر، ومن هنا فإن الطهطاوي يرى ضرورة العناية بالتعلم عند الإناث والذكور على حد سواء، وذلك ليتحصل كل منهما على أسباب السعادة والسيادة، فالتعلم يكون في

سن الشباب، ويشدِّد الطهطاوي على ضرورة التعلم في المراحل المبكرة واغتنام الفرصة وعدم تفويتها، لئلا يقع الأفراد في الندم على ما فاتهم من تقصير في التعلم، فقد تأسّف على زمن الشبيبة أقوام كثر، وأفراد أفاضل وسعَوا عند التقدم في السن أن يجبروا خلل ما فاتهم بقدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا[33].

ب- القسم الثاني: وهنا يتوقف الطهطاوي عند العلوم الدينية والشرعية، ووجوب تحصيلها من قِبَلِ كل الناس، وسبيل ذلك هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهذه من فضائل الخالق ونعمه على الخلق كافة، وهذه السبيل تفضي إلى نتائج شريفة، أجلها معرفة الخالق جلا وعلا، والتي بها تكون سعادة الدارين، والقرآن الكريم هو المرجع والآية الكبرى والنعمة العظمى في بيان ما لا تهدي إليه العقول، والكتاب العزيز هو الملجأ من الفتن، ودليل ذلك – بحسب الطهطاوي – قول الرسول الكريم (ص): " إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل فيما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل"[34].

إن القرآن الكريم عند الطهطاوي، هو المصدر الجامع لأنواع المطلوب من العقل والنقل، وهو الحجة في بيان وشرح السياسات المطلوبة في شؤون وأحوال الخلق، وبمعنى، أن القرآن الكريم هو البيان والدستور في تنظيم حياة الناس المدنية وشؤونهم المعشرية، من قبيل: حفظ الأديان والأنساب والأموال والبيع والشراء والزواج إلخ، ولذلك يتوجب تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة، ولاسيما أن الشرع الشريف – بحسب الطهطاوي – لا يحظر جلب المنافع و لا درء المفاسد، ويستوعب كل ما هو جديد في الحياة، كما أن الشرع الشريف لا يحظر الجديد الذي مصدره العقل [35]، وبهذا نلحظ تأكيد الطهطاوي على مكانة العقل وأهمية المعرفة التي نتحصل عليها عن طريقه، فالعقل والنقل عند الطهطاوي لا يتناقضان، وبمعنى أن العقل والشرع مسلكان لتحصيل العلوم والمعارف .

ج- القسم الثالث: وهو التربية العمومية، وهي كل ما يتعلمه الذكور والإناث في المدارس وفي سائر المجمعات والمكاتب التعليمية، وهذا القسم ينطوي على أقسام ثلاثة: تعليم أولي ابتدائي، وتعليم ثانوي تجهيزي، وتعليم كامل، بحسب تعبير الطهطاوي[36].

إن التعليم الأولي الابتدائي عند الطهطاوي هو تعليم عامٌّ يشترك فيه جميع الناس، يشترك فيه أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء، الذكور والإناث، ويتضمن تعلم القراءة والكتابة والحساب والنحو، وتعلم القراءة والكتابة يكون بتعلم القرآن الكريم، ومن عناية الله جلا وعلا بخلقه، أنْ ألهمهم الكتابة التي تعينهم على أداء ما ائتمنوا عليه، مما يزيل عنهم أسباب الريب، ومنافع الكتابة كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، فبالكتابة دُوِّنت العلوم وقُيدت الأحكام وضُبطت أخبار الأولين، وبالكتابة استقام أمر الدين، والكتابة قديمة قِدَمَ التاريخ، وقال بعضهمإنَّ أول من اتخذ القرطاس وكتب عليها، هو النبي يوسف عليه السلام عندما كان يكتب لعزيز مصر صاحب الرؤيا[37]، وأما تعلم النحو فهو من العلوم الأولية ومن شأنه إصلاح اللسان وضبط اللغة، فيما تعلم مبادئ الحساب والهندسة، يفيد في المعاملات اليومية بين الناس، ومتى تعلَّمَ الأفراد هذه العلوم حَسُنَ حال الهيئة الاجتماعية، وهذا يشمل بطبيعة الحال المجتمع بأسره، فالتعليم الأولي ضروريٌّ للناس كافة، يحتاج إليه الأفراد كاحتياجهم إلى الخبز والماء، لهذا يتوجب على المعلم أن يتخذ في تعليم الأفراد أقرب الطرق وأسهلها، وفي مجال علوم الصنائع، على المعلم أن ينهج أقصر السبل في تعليم الأولاد، ذلك أن المنتسبين إلى هذا النوع من التعليم، أي التعليم المهني، إنما هم أولاد الفقراء، فالزمن محسوب على آبائهم الذين هم في الغالب فقراء، فلا ينبغي أن تكون مدة التعلم طويلة[38]، وذلك ليتمكنوا من مساعدة أُسَرِهم .

وفي موضوع التعليم الثانوي(التجهيزي)، فهذا من اختصاص الدولة – كما يرى الطهطاوي– ذلك أن التعليم الثانوي هو السبيل إلى تحديث الدولة ونموها، وينطوي هذا النوع من التعليم على فروع متعددة، منها العلوم الرياضية، وعلوم الجغرافية والتاريخ والمنطق، وعلم الأحياء والكيمياء، وعلوم الإدارة وفنون الزراعة، وبعض من علوم اللغات

الأجنبية التي تعود بالنفع على الدولة، ومن ثمَّ تعود بالنفع على الوطن، وأما التعليم العالي، فهو وقفٌ على النخبة من أبناء البلاد، ممن تتوافر لديهم القدرة والإمكانيات المعرفية والمادية، ذلك أن التعليم العالي تعليم متخصص، فهو يستلزم من الطالب الاستعداد والقابلية لبلوغ أقصى المعارف[39].

وكما أن التعليم الأولي والمعارف العمومية، يجب أن تشمل جميع أبناء البلاد، فقيرهم وغنيهم، كذلك يجب أن يكون التعليم الثانوي متاحاً للجميع، وذلك بخلاف التعليم العالي، الذي هو مخصوص بأرباب السياسة وأهل الحل والعقد في الممالك والحكومات،ولذلك فإن التعليم العالي يجب أن يكون مقنناً ومحدداً تحديداً دقيقاً، بحيث يكون عدد الطلاب محدوداً، وفي هذا السياق كتب الطهطاوي قائلاً :" كل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لابد أن يكون صاحب ثروة ويسار، ويكون يساره مقيداً بقيود خاصة في الغنى والاعتبار، بحيث لا يضرّ تفرغه للعلوم العالية بالمملكة، فمن الخطر على من له صناعة يتعيّش منها وينتفع بها الناس، أن يترك هذه الصناعة، ليدخل في دائرة معالي المعارف، التي لا تصلح أن تكون له بضاعة فلا ينبغي أن يُرَخَّصَ للتلامذة المتعلمين العلوم الأولية والثانوية، أن ينتظموا في سلك أرباب المعارف القصوى، إذا كانت في حقهم قليلة الجدوى"[40].

إن حصر التعليم العالي بفئة من النخبة السياسية الميسورة، وبأصحاب الامتيازات الاقتصادية والمالية، يعكس بوضوح الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التي كانت سائدة آنذاك، وهذا يتعارض مع ديموقراطية التعليم التي نادى بها الطهطاوي في المرحلة الأولى، والمرحلة الثانوية من مراحل التعليم – كما أظهرنا فيما سبق – مما يشكل تناقضاً في فلسفته وفكره التربوي، ويشي بنزعة برجوازية عند الطهطاوي فيما تعلق بامتياز التعليم العالي، ووقْفِه على فئة محددة من أبناء أصحاب النفوذ في البلاد.

الخاتمة:

يمكن القول إن عملية تحديث مصر كانت في عهد محمد علي باشا، وخصوصاً فيما تعلق بتحديث البُنى الرئيسة للدولة، كمؤسسة الجيش، ومؤسسات التعليم، ولكن محمد علي باشا الذي شرّع أبواب مصر على الغرب في محاولة منه لتحديث الدولة، لم يتنازل عن لقب الحاكم الملك، فقد أبقى على قبضته الحديدية على مصر، فاحتكر السلطة والملكية، مما أفضى إلى رأسمالية من نوع خاص، يمكن نعتها ب" رأسمالية دون رأسماليين"[41]، وكان لهذا تأثيره في المستويات كافة، الاقتصادية منها والاجتماعية والفكرية والسياسية.

لقد كان هذا هو المناخ العام، الذي عمل فيه رفاعة رافع الطهطاوي ورهط من التنويريين، ممن جمعتهم قرابة فكرية في الرؤى والطروحات التقدمية، فيما تعلق بكيفية نهوض مصر وتحديثها آنذاك.

يعدُّ رفاعة رافع الطهطاوي واحداً من أبرز أعلام فكر النهضة في هذا السياق، فقد تمكَّن الرجل من أن ينهض بطروحات متقدمة على طريق مشروع نهضة وتحديث مصر، وذلك على الرغم من هيمنة الفكر الأزهري وضراوته آنذاك، ولاسيما فيما تعلق بقضية تعليم المرأة وتحررها.

لقد استطاع الطهطاوي أن ينهض بقوله الخاص في ضرورة التعليم ومشاركته بين البنات والبنين، كما نادى بضرورة التعليم للناس كافة، وبضرورة التعليم العامّ وأهميته للإناث والذكور، للفقراء والأغنياء، فيما عدا التعليم العالي، الذي ذهب فيه مذهباً مغايراً، حيث وقَفَهُ على النخبة، مما شكل تناقضاً في طروحاته التربوية.

إن القول الرئيس الذي يمكن قراءته بوصفه قولاً تنويرياً متقدماً في فلسفة التربية عند الطهطاوي، هو قوله بضرورة تعلم المرأة وأهميته في إطار مشروع تحديث مصر

وتنميتها، وقد أفرد الطهطاوي لهذا القول كتاباً يعد من أهم أعماله، وهو كتاب (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين)، الكتاب الذي ضمّنه طروحاته حول فلسفة التربية وقضايا التعليم، وهي طروحات مازالت راهنة إلى يومنا هذا، ويمكن القول إن فلسفة التربية عند الطهطاوي مازالت ندية، بمعنى أنها فلسفة تنطوي على طروحات متعددة لم تُسْتَنْفدْ بعد، بل مازالت راهنة ومطلوبة في سبيل تنمية الفكر التربوي في البلاد وتقدمه .

الهوامش والحواشي:

1- زيادة، معن، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، المجلس الوطني للثقافة، الكويت،1987، ص.174.

2- المحافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، دار الأهلية للنشر، بيروت،1987، ص23، ص.203.

3- للوقوف على شرح أكثر تفصيلاً في موضوع البعثات العلمية، انظر: عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1982، ص407 وما بعدها.

4- علي سعيد، إسماعيل، الفكر التربوي الحديث، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1987، ص44.

5- المرجع السابق، ص25.

6- حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة:عزيز عزقول، دار النهار، بيروت، د.ت، ص74.

7- المرجع نفسه، ص75.

8- المحافظة، المرجع نفسه، ص27-28.

9- المرجع نفسه، ص29.

10- المرجع نفسه، ص30.

11- علي سعيد، مرجع سبق ذكره، ص51

12- المحافظة، علي، مرجع سبق ذكره، ص31

13- الزركلي، خيرالدين، الأعلام، مادة (رفاعة)، ج3، بيروت، ط5 1980، ص29.

•تعد جرجا مدينة عريقة من أكبر المدن الإسلامية في العهدين العثماني والعهد المملوكي، وأصبحت جرجا إحدى مديريات مصر في عهد محمد علي باشا، وتحولت إلى محافظة في عام (1956)، وفي عام (1960) تم إلغاء تسمية جرجا، وصارت تعرف بسوهاج، انظر الرابط :www.m.marefa.org

14- الطهطاوي، رفاعة، المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، دار الكتاب المصري، القاهرة،2012، المقدمة تحرير منى أحمد أبو زيد، ص21-22.

* شارل دي مونتسكيو (1689-1755) عالم اجتماع فرنسي، من أهم مؤلفاته (رسائل فارسية)، و(روح القوانين)، وكانت هذه المؤلفات شائعة بين أنصار الثورة الفرنسية عام (1789) وقد انتقد مونتسكيو بشدة الحكم المطلق، انظر: الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء والأكاديميين السوفييت، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1974، ص512

** جان جاك روسو (1712-1778) فيلسوف فرنسي من أهم أعماله (مقال في أصل التفاوت بين البشر)، و (العقد الاجتماعي)، و(إميل أو في التربية)، وقد انتقد في معظم مؤلفاته العلاقات الطبقية الإقطاعية والنظام الاستبدادي، وناصر الديموقراطية البرجوازية والحريات المدنية، انظر: المرجع نفسه، ص232

15- المصدر نفسه، ص26.

16- المصدر نفسه، ص28.

17- حوراني، مرجع سبق ذكره، ص97.

**مربٍ ولاهوتي فرنسي(1651-1715م) نشر أول مؤلف بعنوان(تربية البنات)عام1687، وفي عام1699 نشر(تلماك) وهو كتاب تهذيبي للأمير"دوكبروغنيه"، وينطوي أيضاً على نقد لاذع للويس الرابع عشر ولحاشيته ووزرائه، للمزيد انظر: فنلون، تلماك، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة ط1،1957.

18- المرجع نفسه، ص97.

19- الطهطاوي، المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، مصدر سبق ذكره، المقدمة: تحرير منى أحمد أبو زيد، ص ص30-31

20- الطهطاوي، مصدر سبق ذكره، ص35، كذلك انظر: محمود فتحي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1974، ص333

21- حوراني، مرجع سبق ذكره، ص93 .

22- الطهطاوي، رفاعة، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، ج2، مكتبة دار الشروق، القاهرة، 2010، ص93.

23- المصدر نفسه، ص95-96.

*** كرس شارل العاشر جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجامعات، وعمل على إعادة الحكم المطلق في فرنسا، مما أدى إلى قيام ثورة (1830) والقضاء على حكم شارل العاشر، وحل محله على العرش لويس فيليب، للمزيد انظر: موجز تاريخ العالم، هـ.ج. ويلز، ترجمة: عبد العزيز جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967، ص294 .

24- المصدر نفسه، ص242 .

25- حوراني، ألبرت، مرجع سبق ذكره، ص94.

26- الطهطاوي، رفاعة، المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، مصدر سبق ذكره، ص12.

27- المصدر نفسه، ص13.

28- المصدر نفسه، ص14-15.

29- المصدر نفسه، ص34.

30- المصدر نفسه، ص36.

31- المصدر نفسه، ص.38.
32- المصدر نفسه، ص38.
33- المصدر نفسه، ص131-132.
34- المصدر نفسه، ص132-133.
35- المصدر نفسه، ص134.
36- المصدر نفسه، ص134.
37- المصدر نفسه، ص135.
38- المصدر نفسه، ص136.
39- المصدر نفسه، ص137.
40- المصدر نفسه، ص137-138.
41- السعيد، رفعت، مصر: التنوير عبر أبواب عدة، النهج، العدد43، 1996، ص45.

المصادر والمراجع:

- الطهطاوي، رفاعة، المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، دار الكتاب، القاهرة، 2012 م.
- الطهطاوي، رفاعة، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، ج2، مكتبة دار الشروق، القاهرة،2010م.
- السعيد، رفعت، مصر: التنوير عبر أبواب عدة، النهج، العدد 43، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، بيروت، 1996م.
-حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة: كريم عزقول، دا النهار، بيروت، د. ت.
-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، بيروت، ط5، 1980م.
- المحافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، دار الأهلية، بيروت،1987م.
- علي سعيد، إسماعيل، الفكر التربوي العربي الحديث، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1987م.
-زيادة، معن، على طريق تحديث الفكر العربي، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1987م.
-الرافعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1982 م.
-حجازي، محمود فتحي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
- لجنة من العلماء والأكاديميين السوفييت، الموسوعة الفلسفية، ترجمة : سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1974م.
- فنلون، تلماك، ترجمة : عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1957 م.

– ويلز،هـ.ج.، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1967م.www.m.marefa.org